Archive of SID

الأدب النسائی مصطلح یتأرجح بین مؤید ومعارض

مهدی ممتحن*
شمسی واقف‌زاده**

الملخص

ظهرت فی القرن العشرین، دعوات تنادی بالنسویة وأطلق علیها مصطلح «الأدب النسائی»، فی سیاق الحرکات الداعیة لتحرر المرأة وأطلت علی الأدب العربی فی السبعینات وفی الثمانینیات حتی ظهر تیار عربی سمی بالنقد النسوی. ومازال هذا المصطلح، موضع شک وارتیاب بالنسبه لکثیرات من المبدعات، ومازال بالنسبة لبعضهن تهمة تنصق بما یکتبنه ومن هنا بقی المصطلح یتأرجح بین مؤید ومعارض وسط مناقشات فی الأوساط النسائیة الأدبیة بشکل خاص.

وطبعاً تم الاختلاف حول المصطلح، هل الأدب النسائی هو الأدب الذی تنتجه المرأة؟ أم هو ما تکتبه المرأة ویدعو إلی التمرد علی ذکوریة المجتمع؟ أم هو غیر ذلک؟ قبل ذلک هل یوجد أدب نسوی وأدب رجالی؟ أم أنّ الأدب هو أدب إنسانی لارجولیة ولانسویة فیه؟ أیضاً ما المصطلح المناسب؟ أدب نسوی، أم أدب المرأة؟ أم الأدب الأنثوی؟ أم الأدب النسائی؟

الکلمات‌الدلیلیة: الأدب النسائی، الأدب الرجالی، الأدیبات، الشاعرات.

*. عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت.
**. عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فرع ورامین ـ پیشوا.
Dr.momtahen@gmail.com

تاریخ الوصول: ۱۳۸۹/۵/۷هـ. ش تاریخ القبول: ۱۳۸۹/۱۰/۱۹هـ. ش

www.SID.ir

Archive of SID

المقدمة

عندما نتكلم عن مصطلح «الأدب النسائی»، تنصرف الأذهان إلی دلالتین محتملتین لهذا المصطلح، الأولی، أدب کاتبته المرأة والأخری، أدب موضوعه المرأة؛ ومن باب التفریق انصرف المصطلح إلی الدلالة الأولی، واختصت الثانیة بمصطلح آخر هو «الأدب النسوی».

یمکن القول إن استعمال مصطلح «الأدب النسائی» یعود فی العالم العربی، إلی مرحلة النهضة التی أدرک فیها المتنورون أهمیة دور المرأة فی نهوض المجتمع، وهو ما استدعی تعلیمها وأفسح لها، من ثم، إمکان المشارکة فی النشاطات الاجتماعیه والثقافیة والإنتاج الأدبی. فی هذه المرحلة ـ مرحلة النهضة ـ عرفت اللغة العربیة مجموعة من المفردات تخص نشاطات المرأة وتشیر إلی ما یبذل من أجلها مثل، «تعلیم النساء»، «الجمیعات النسائیة» مثل جمعیة «زهرة الإحسان» وهی أنشات سنة ۱۸۸۰م فی بیروت وجمعیة «یقظه الفتاة العربیة» فی سنة ۱۹۱۴م، «المجلات النسائیة» مثل مجلة «الفتاة» أصدرت سنة ۱۸۹۲م فی الإسکندریة ومجلة «المرأة» سنة ۱۸۹۳م فی حلب، مثل هذه النشاطات وسمت بـ«النسائیة» وإن شارک فیها الرجل. وعلیه فإن «النسائی» یشیر وبشکل أساس، إلی حیز دال علی حضور المرأة ونشاطها فی الحیاة الاجتماعیة والثقافیة والأدبیة.

أما المرأة دخلت إلی مجال العلم والتعلم متأخرة عن الرجل، إذ کانت المرأة قبل عصر التنویر لایسمح لها بالخروج من المنزل. وقد تمّ إرسال أول فوج من النساء للتعلم فی الجامعات فی مصر عام ۱۹۳۲م وذلک فی الوقت الذی کان هناک خریجو رجال عرب من کل مکان فی العالم، لذا فمن الطبیعی أن یسبقها الرجل فی الکتابة.

مصطلح «الأدب النسایی» فی النقد العربی

مع ازدیاد عدد الأدیبات الشهیرات بدأ هذا السؤال وأمامه علامة استفهام کبیرة «هل لدینا أدب نسائی وأدب رجالی؟» أم أن الأدب هو أدب إنسانی، لارجولیة ولانسویة

www.SID.ir

Archive of SID

فیه؟ أما من بین النقاد العرب فنلفی «جورج طرابیشی» الذی یمیز بین ما تکتبه المرأة وما یکتبه الرجل إذ یری أن الرجل یکتب بعقله، أما المرأة فتکتب بقلبها ویقول: العالم هو محور اهتمام الرجل، أما المرأة فمحور اهتمامها الذات، حیث تستمد جمالیة الکتابة فی المقام الأول من ثراء العواطف وزخم الأحاسیس. (طرابیشی، ۱۹۸۱م: ۱۱-۱۰) کما یقول بعضهم، إن المرأة تجنح إلی التخصیص والرجل یجنح إلی التعمیم، حیث تکون نظرته شاملة ونظرتها جزئیة وفردیة.

فی جانب آخر، یری بعض النقاد، أن الأدب له أصوله ومفرداته وأدواته الفنیة التی تختلف فی تمیزها من أدیب إلی الآخر ولایمکن أن یختلف عند الرجل أو المرأة، ولایمکن أن نسمّی غیر الأدب، أدباً لمجرد أن کاتبه امرأة أو رجل وشاعت ـ خطأ ـ مقولة «الأدب النسائی» رغم أن الکبار لایحبذون هذا التعبیر؛ حیث قالت الأدیبة الجزائریة زهور ونیسی: «الأدب یقوم علی جوهر إنسانی دون أن تدخل فیه «الأنوثه» أو «الذکورة»... فهو یبحث عن التزاماته لیضیف التزاماً آخر ینتصر به علی أعداء المجتمع أیاً کانوا.» (ونیسی، ۱۹۸۸: ۱۵) ویقول بعضهم: إن هناک مواقف وقصصاً تکون فیها الکاتبة أقدر علی سبر أغوار المرأة لکونها امرأة، کما أن الرجل یکون قادراً علی توصیف حالات وضع الرجل أکثر من المرأة، علی الرغم من وجود نماذج من أدباء استطاعوا الدخول إلی العوالم الأخری. وبعضهم یعتقدون أن المرأة إنسان ذو موقع اجتماعی واقتصادی وذو علاقات إنسانیة بالمجتمع الذی نعیش فیه ومن هذا الأساس تعبر عن مبادئها وعن رؤیتها إلی الحیاة وهی فی ذلک تنفق مع بعض الکتاب وتختلف مع بعضهم الآخر لذلک لانستطیع أن نطلق اصطلاح «الأدب النسائی» نجمع فیه کاتبات مختلفات تماماً فی الأسلوب والاتجاه والرؤیة الفکریة. وهناک العدید من الأقلام النسائیة التی ترفض مسألة التضیف علی أساس الجنس وتری فی الأمر شیئاً من المبالغة واللاواقعیة ویمکن أنّ الأدب یعنی کلا الجنسین ولیس جنساً دون آخر. لأنّ الأدب خلاصة تجربة إنسانیة لاتختص الذکر دون الأنثی ولا الأنثی دون الذکر؛ وذلک إذا أتیحت للمرأة الفرص للتثقف ثقافة عمیقة مثل الرجل، وحظیت بالمکانة نفسها التی یتمتع بها الرجل

www.SID.ir

Archive of SID

فی المجتمع.

بین شعر النساء وشعر الرجال

مادام موضوع بحثنا فی الشعر النسوی، فقد یتبادر إلی الأذهان سؤال، هل هناک فرق بین شعر النساء وشعر الرجال؟

فأجاب البعض، بأن للمرأة عالمها کما للرجل عالمه، ولکل منهما تصورات ونظرات للحیاة تختلف عما عند الآخر، کما أن هناک فوارق طبیعیة ناتجة عن الفوارق الجنسیة والجسمیة تقتضی انفراد أدب المرأة عن أدب الرجل. وذلک لأن أدب المرأة مرتبط بترکیبها الذهنی والنفسی وأشیاء أخری أهمها عاطفة المرأة وحساسیتها ...

وفنیة الأدب تعنی ارتباطه بالوجدان والعاطفه ولاسیما الشعر الذی تعبر به عن عواطفها وحساسیتها المرهفة وقلما تجید المرأة کتابة المسرحیات والمقالات والأبحاث الفکریة والأدبیة والمواضیع العلمیة وذلک لأن البحث یتطلب عقلا منهجیاً منظماً لادخل للعاطفة والوجدان فیه. (الکیلانی، لاتا: ٢)

یری البعض الآخر أن المرأة لها نظرتها للأمور تختلف عن نظرة الرجل لاختلاف طبیعتها عن طبیعة الرجل، وذلک بالرغم من مشارکتها للرجل فی جمیع جمالات الحیاة ومیادینها فی العصر الحدیث. أدب الرجل تری فیه الخشونة الواضحة تنم عنها فزعاته فی الشعرالحماسی وشعر الفخر وحتی فی شعر الغزل، بینما أدب المرأة تتجلی فیه أنوثتها بوضوح شعراً کان أو قصة مثل رثاء الخنساء لأخیها «صخر»، و مجال القصص تری اهتمامات المرأة انصبت فی معظمها حول تجسید هموم المرأة ومعاناتها، وواقع الحیاة بین الزوجین وحدیث الغدر والخیانة، وهموم الظروف الحیاتیة، والحدیث عن عطاء المرأة الدائم، وفی کل ذلک تهتم الأدیبة بأن تسبر أغوار المرأة من منطلق واقعها کأنثی وهذا ما یعجز عنه الرجال ولعلّ سر غزارة القصة فی الأدب النسایی یرجع إلی طبیعة المرأة وخصوبة خیالها أکثر من الرجل.

کما نلاحظ معظم شعر المرأة یتصف بالسهولة والبساطة العفویة لأنها تکره المجردات

www.SID.ir

Archive of SID

والعقليات، فإذا فكرت فهی تفكر من خلال احساسها وعواطفها وإذن هناک أدبان أدب يصدر عن النساء؛ بخصائصه، وآخر يصدر عن الرجال بخصائصه. وهذا شیء طبيعی لأن لكل من المرأة والرجل عالمه. (بوفلاقة، ۲۰۰۳م: ۲۵)

جامعو الشعر العربی والمؤرخين تناسوا المرأة العربية الأديبة

ممّا يوكد أن شعراً كثيراً قد ضاع إلى جانب عديد من الأسماء الشعرية الضائعة وإلاّ كيف نفسر عدم عثورنا على ديوان مستقل لشاعرة واحدة، باستثناء المقطعات التی جمعت لكل من «الخنساء» و«ليلى الأخيلية»، أو بعض المراثی التی حصرها «ابن سلام» فی كتابه طبقات فحول الشعراء، ضمن قسم طبقة شعراء المراثی أو «البحتری» الذی ضمن مختارات من غرض الرثاء لمجموعة من الشاعرات العربيات فی كتابه «الحماسة». وهكذا لم يصل إلينا من الشعر النسائی إلا النزر القليل، وهی الحقيقة التی أكدها بعض الشعراء؛ فأبونواس مثلاً معترفاً بشاعرية كم كبير من الشاعرات اللاتی عشن فی الجاهلية وصدر الإسلام أفاد من تجاربهن الشعرية بقوله: «ما قلت الشعر حتی رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى الأخيلية.» (صادق الرافعی، ۱۹۷۴م، ج۳: ۷۳) كما قال أبوتمام: «لم أنظم شعراً حتی حفظتُ سبعة عشر ديواناً للنساء خاصةً.» (نفس المصدر) إهمال المرأة العربية الشاعرة من قبل المؤرخين القدماء وضياع أكثر شعرها، يعود إلى أسبابٍ اجتماعيةٍ قاهرةٍ تحكمت فيها وكذلک إلى أسبابٍ تاريخيةٍ منها:

۱. إنّ حركة الجمع والتدوين فی العصر العباسی قد نشطت على أيدی رجال عاشوا بعقلية مجتمع وأد المرأة معنويا، وعزلها عن الحياة العامة ومن ثم لم يكن لها فی تصورهم أن تتحدث عن عواطفها ولذا حصروا مجالها الفنی فی الرثاء.

۲. التعصب من قبل الرجال وعدم اعترافهم بشاعرية المرأة، فی القديم كانت تحاط بسياج كامل من الصون والعفاف فكان الحديث عنها يحفظ وحديثها كان يكتم. وكان الحديث عن المرأة فی المجتمع الجاهلی والإسلامی والأموی يحاط بسياج من العفة، وفی مجتمع الصعاليک فكان لاينظر إلى المرأة إلا من جانب المتعة، والشهوة والجسد

www.SID.ir

Archive of SID

والغزل وكان الحديث عن المرأة فی شتی جوانب الحياة، فهی الزوجة والأم وصاحبة الصون والعفاف وهذا المجتمع شذ عن الأعراف السائدة، ولذالک ظهور المرأة على الساحة الأدبية مرتبط بعوامل بيئية.

٣. جمع بعض الرواة والعلماء، أشياء من شعر النساء، غير أنّ أكثر هذه الكتب قد ضاع مع ما ضاع من التراث العربی. (بوفلاقة، ٢٠٠٣م: ٢٣)

الإهمال أو الإغفال فی إسهام المرأة العربية فی الحقل النقدی

تجلی الإهمال فی إسهام المرأة العربية أيضاً فی الحقل النقدی، إذ نلحظ أبعاد بعض المحاولات النقدية التی صورت عنها وتصنيفها هامشياً على ضفاف الآراء النقدية المعتد بها، هنا نذكر مشهدين برزت فيهما المرأة كموقف، ورؤية نقدية حصيفة:

وأما المشهد الأول فيتجلی فی تحكيم «أم جندب» بين زوجها «امرىء القيس» و«عقلمة بن عبدة»، الذی تزوجها فيما بعد وصار يعرف بعلقمة الفحل، يقول ابن قتيبة: «كان علقمه ينازع امرىء القيس الشعر، فقال كل واحد منهما لصاحبه، أنا أشعر منک، فقال علقمة قد حكمت امرأتک «أم جندب» بينی وبينک، فقال رضيتُ، فقالت أم جندب: قولا قولاً تصفان فيه الخيل على روی واحد وقافية واحدة، فقال امرؤالقيس قصيدته التی أولها:

خليلــی مرا بی على أم جندب　　لنقــض لبانات الفــؤاد المعذب

و قال علقمة قصيدته التی أولها:

ذهبت من الهجران فی غير مذهب　　و لــم يک حقا كل هذا التجنب

ثم أنشدها جميعاً، فقالت لامرى القيس، علقمة أشعر منک. قال وكيف؟ قالت لأنک قلت:

فللســوط ألهوب و للساق درة　　و للزجر منه وقع أخرج مهذب

فجهدت فرسک بسوطک، وزجرک فأتعبته بساقک وقال علقمة:

فولی على آثــار هن بحاصب　　و غيبة شؤبوب من الشد ملهب

www.SID.ir

Archive of SID

فأدركهــن ثانيــاً مــن عنانــه يمــر كمــر الرائــح المتحلــب

فأدرک طریدته، وهو ثان من عنانه، لم یضربه بسوط، ولم یمره بساقه، ولم یزجره. (ابن قتیبه، ۱۹۸۶م: ۱۳۱– ۱۳۰)

أما المشهد الثانی فقال أبوالفرج الأصفهانی فی کتابه «أخبار النساء فی کتاب الأغانی»:

«اجتمع بالمدینة راویة «جریر» وراویة «کثیر» وراویة «جمیل» وراویة «نصیب» وراویة «الأحوص»، فافتخر کل واحد منهم بصاحبه، وقال: صاحبی أشعر. فحکموا سکینة بنت الحسین بن علی، رضی‌الله عنهما، لما یعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر؛ فخرجوا یتقادون، حتی استأذنوا علیها، فأذنت لهم، فذکروا لها الذی کان من أمرهم، فقالت لراویة جریر: أَلیس صاحبک الذی یقول:

طرقتک صائدة القلوب ولیس ذا حیــن الزیارة فارجعی بســلام

وأی ساعة أحلی للزیارة من الطروق، قبّح الله صاحبک، و قبّح شعره! ألا قال: فادخلی بسلام!

ثم قالت لراویة کثّیر: أَلیس صاحبک الذی یقول:

یقــرّ بعینی مــا یقــرّ بعینها وأحسن شیء ما به العین قرّتِ

فلیس شیء أقرّ لعینها من النکاح، أفیحب صاحبک أن ینکح؟ قبّح الله صاحبک، وقبّح شعره! ثم قالت لراویة جمیل: أَلیس صاحبک الذی یقول:

فلو ترکتْ عقلی معی ما طلبتُها ولکن طلابیها لما فات من عقلی

فما أری بصاحبک من هوی، إنما یطلب عقله، قبح الله صاحبک وقبح شعره! ثم قالت لراویة نُصیب: أَلیس صاحبک الذی یقول:

أهیم بدعدٍ ما حییت فإن أمت فیا حربا من ذا یهیم بها بعدی

فما أری له همة إلا من یتعشقها بعده! قبّحه وقبّح شعره! ألا قال:

أهیم بدعد ما حییت فإن أمت فلا صَلَحت دعد لذی خلة بعدی

ثم قالت لراویة الأحوص: أَلیس صاحبک الذی یقول:

www.SID.ir

Archive of SID

مِن عاشــقين تواعدا وتراسلا ليــلاً إذا نجــم الثريــا حلّقــا
باتــا بأنعــم ليلــة و ألذهــا حتى إذا وضــح الصباح تفرّقا

قال: نعم، قالت: قَبّحَه الله وقبح شعره! ألا قال: تعانقا.

قال إسحاق فی خبره: فلم تُثْن على أحد منهم فی ذلک الیوم، ولم تقدمه.

قال: وذکر لی الهیثم بن عدی مثل ذلک فی جمیعهم إلا جمیلاً، فإنه خالف هذه الروایة، وقال: فقالت: لراویة جمیل: أَلیس صاحبک الذی یقول:

فیما لیتنی أعمی أصمُّ تقودنی بُثینــةُ لایخْفــی علــی کلامها

قال: نعم قالت: رحم‌الله صاحبک کان صادقاً فی شعره، کان جمیلاً کاسمه، فحکمت له.» (الأصفهانی، ۱۹۸۸م: ۱۶۳-۱۶۲)

الأدب النسائی مدی الأعصار المختلفة

إنّ الأدب العربی النسائی مهضوم الحق، مهیض الجناح قدیماً وحدیثاً، فما تکاد تری دیواناً لشاعرة، أو مجموعة لنابغة، أهمل ذلک الأولون، ومضی علی آثارهم المتأخرون، فأنتَ إذا تصفحت مختارات الشعر کحماسة «أبی‌تمام» و«البحتری» وغیرهما من الأقدمین، أو مختارات «البارودی» وأمثاله من المتأخرین لاتجد فیها شعراً نسائیاً إلا ما ندر. کأن الدهر قد حکم علی المرأة بالظلم فی کل شیء حتی فی الأدب والشعر، وما أدری إن کان ذلک من الأولین تعمداً أم کان منهم إهمالاً ونسیاناً. (یمّوت، ۲۰۰۶م: ۵) علی کل حال إنّ المتصفح لمتن الشعر العربی القدیم ابتدء من عصر ما قبل الإسلام مروراً بالأعصر الأمویة والعباسیة والأندلسیة و...، وصولاً إلی عصرنا الحاضر یلفی عدداً ضخماً من الشاعرات المجیدات فی مختلف الأغراض الشعریة:

ففی العصر الجاهلی: نجد أسماء شاعرات کثیرات وإن کان ما وصلنا من شعرهن قلیل، وأشهرهن:

«زرقاء الیمامة»، التی کانت شاعرة وعرافة وهی التی تقول تحذر قومها من عدّوٍ یبیت لهم:

www.SID.ir

Archive of SID

خــذوا حذاركــم يا قَــوْمُ ينفعكم فليــس مــا أرى بالأمــر يحتقرُ
إنى أرى شــجراً من خلفها بَشَــرٌ وكيف تجتمع الأشــجارُ والبشــرُ

(صقر، ۱۹۶۷م: ۱۳۹)

وهذه «كرمة» بنت ضلع، كانت تنشد الأراجيز لتحض الرجال وتحمسهم على الحرب، من شعرها هذه الأرجوزة المشهورة:

نحــنُ بنــاتُ طــارقْ نَمشــى علــى النّمــارقْ
مَشــى القطــى البــارق المشــكُ فــى المفــارق
والــدّرُ فــى المخانــق إنْ تُقبلــوا نُعانــق
اَو تُدْبــروا نُفــارق فــراق غيــر وامــقْ

(يموت، ۲۰۰۶م: ۴۲)

ومنهن، «ليلى بنت لكيز» الملقبة بالعفيفة، وهى التى تصف فيها ابتذال الأعداء لعفافها بهذا البيت البديع:

غَلَّلوُنــى قَيدونــى ضرَبوا مَلْمَسَ العفــةِ منّى بالعصا

(نفس المصدر: ۳۲)

وكذلك السلكة أم السليک السعدى وهو من الشعراء الصعاليک، كان لها شعر موثر فى رثاء ابنها الذى قتله أحد أعدائه ومنه قولها:

طــافَ يبغــى نَجــوَةً مــن هــلاكٍ فَهَلَــكْ
لَيــت شــعرى ضلّــةً اَى شــىءٍ قتلَــكْ؟
أمريــض لــم تُعَــدْ اَم عَــدُوّ خَتَلَــكْ؟

(صقر، ۱۹۶۷م: ۱۶۶)

أما فى صدر الإسلام والعصر الأموى فقد حفظت لنا الكتب أسماء شاعرات من قريش ومن بيت النبوة، ومنهن «عائشة» بنت أبى‌بكر و«عقيلة» بنت عقيل بن أبى‌طالب و«سكينة» بنت الحسين و«الرباب» زوجة الحسين و«فاطمة» بنت الأحجم الخزاعية وهى من صحابة الرسول عليه السلام و«عاتكة» بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب وإن

www.SID.ir

Archive of SID

کانت المصادر التی بین أیدینا لم ترون لهن إلا قلیلا. (بوفلاقة، ۲۰۰۳م: ۱۹)

وکذلک، سکینة بنت الحسین (ع)، التی کانت شاعرة وناقدة قبل أن یعترف بها مؤرخو الأدب ومن شعرها قولها ترثی زوجها مصعب بن الزبیر الذی قتل فی حرب عبدالملک بن مروان.

فإن تقتلوه تقتلــوا الماجد الذی   یری الموت إلا بالسیوف حراما
وقبلَکَ ما خاضَ الحســینُ مَنیة   إلــی القوم حتــی أوردوه حماما

(صقر، ۱۹۶۷م: ۱۶۴)

هذه المقطوعة «للرباب زوج الحسین بن علی بن أبی‌طالب» ترثیه فیها حین قتل:

إن الــذی کان نوراً یســتَضاءُ به   بکربــلاء قتیــلٌ غیــر مدفــونِ
ســبطُ النبی جــزاکَ اللهُ صالحةً   عَنّــا وجُنِّبتَ خُســرانَ الموازینِ

(کحالة، ۱۹۸۲م، ج۲: ۲۴۲)

وفی هذا العصر اشتهرت «لیلی الأخیلیة» صاحبة توبة بن الحمیر، وهی شاعرة من شواعر العرب المتقدمات فی الإسلام وبها شعر کثیر فی الغزل والرثاء. (صقر، ۱۹۶۷م: ۳۴۵)

وفی العصر الأموی فنجد «میسون بنت بحدل»، وقد اشتهرت بأبیاتها التی قالتها فی تفضیل خیمتها البدویة علی القصر المنیف الذی أسکنها فیه زوجها معاویة بن أبی‌سفیان ومنها:

لَبیــت تخفُــقُ الأرواحُ فیــه   أحــبُّ إلــی مــنْ قصْــرٍ منیفِ
ولَبْــسُ عبــاءةٍ وتَقَــرّ عینــی   أحــبُّ إلی مــن لُبْسِ الشّــفوفِ

(نفس المصدر: ۱۶۴)

وفی العصر العباسی أهم شاعراته «الرابعة العدویة» التی عاشت فی القرن الثانی للهجرة و«علیة» بنت المهدی، أخت هارون الرشید وکانت من ظریفات الدهر ذکاءً وجمالاً وغناءً وشعراً. وفیها مجانة وحریة متطرفة فی القول، علی عفاف وشرف ومقام. ومن غریب أمرها أنها نظمت الغزل نسائیاً أی تغزلت باسم امرأة کنایة عن حبیبها الرجل

www.SID.ir

Archive of SID

لیبقی مجهولاً. وقد عشقت غلاما اسمه «طل» وقالت فیه:

أیا ســروة البستان طال تشوقی فهــل لی إلی طلّ إلیک ســبیل
متی یلتقی من لیس یقضی خروجه ولیــس لمن یهــوی إلیه دخول
عسی الله أن نرتاح من کربة لنا فلیقــی اغتباطــا خلّــة وخلیل

(یموت، ۲۰۰۶م: ۲۴۰)

وفی العصر الفترة أشهر شاعراته «محبوبة» جاریة المتوکل التی کان لها شعر بدیع ولها رثاء فی سیدها جعفر (المتوکل) من أجمل ما قیل فی هذا الموضوع. وکان للمتوکل شاعرتان غیر محبوبة هما، «بنان» و«فضل»، کانت فضل شاعرة متقدمة فی زمانها وقالت:

استقبل الملک إمام الهدی عام ثلاث وثلاثینا
خلافة أفضت إلی جعفر وهو ابن سبع بعد عشرینا
إنا لنرجو یا إمام الهدی أن تملک الناس ثمانینا
لاقدس الله امرأ لم یقل عند دعائی لک آمینا

(نفس المصدر: ۲۵۰)

وفی المغرب العربی فی الأندلس یعجز القلم عن إحصاء الأدیبات الأندلسیات ومنهن: «الجاریة العجفاء»، «عائشة بنت أحمد القرطبیة»، «حمدونة بنت زیاد الغرناطیة»، «نزهون الغرناطیة» و«ولادة بنت المستکفی».

أمّا «ولادة بنت المستکفی» فهی صاحبة الندوة الشعریة الشهیرة، التی تعد نموذجاً للنشاط الأدبی النسائی وتحرر المرأة فی المجتمع الاندلسی. (غریب، ۱۹۸۰م: ۱۲) «ولادة» فتحت صالونها الأدبی فی قرطبة فی القرن الحادی عشر المیلادی بینما عرفت فرنسا هذه الصالونات لأول مرة فی القرن السابع عشر وکثرت فی القرن الثامن عشر؛ فاجتمع فی ندوتها من معاصریها شعراء وأدباء ووزراء من الرجال والنساء وکانت تستقبل الجمیع ببشاشة ولطف، فیعجب بها الرواد، ویتمنی کل واحد منهم أن تکون له وحده وقد أشارت إلی ذلک حین قالت:

www.SID.ir

Archive of SID

إنــی و إن نظــر الأنــام لبهجتــی كظبــاء مكّــة صيدهُــنّ حــرامُ
يحْســبْنَ من لين الكلامِ فواحشــا وَيصدُّهــنَّ عــن الخنــا الإســلامُ

(بوفلاقة، ۲۰۰۳م: ۸۴)

قال ابن بسام فی «الذخيرة» : «مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء عزتها، ويتهالک أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلک بعلو نصاب، وكرم أنساب وطهارة أثواب.» (ابن بسام: ۱۹۷۵م، ج۱: ۴۲۹)

وفی عصور الاضمحلال الأدبی عقب غارات التتار على العالم العربی وتدميرهم لمكتبة بغداد، وتقويضهم لدولة الخلافة العباسية ظهرت بين رواد الأدب امرأة ناسكة زاهدة هی السيدة «عائشة الباعونية». كان ظهورها فی دمشق فی بيت علم وأدب، فكانت قمراً فی ليلٍ شديد السواد بددت ضياؤه حالک الظلم. «الفتح المبين فی مدح الأمين» هی من قصائد المديح لعائشة الباعونية، لهذه المدحية أهمية خاصة كونها من نظم امرأة هی أغزر الشاعرات العربيات حتى القرن العشرين، وقد ارتبط اسمها بشعر المديح النبوی وهی مع البوصيری أهمّ من اشتهروا بهذا الفنّ. ويبدو أنّ الباعونية كرست جلّ إنتاجها الأدبی شعراً ونثراً لموضوع مدح الرسول والمولد النبوی. وبديعيتها «الفتح المبين» المعارضة لبردة البوصيری أهم أعمالها، وجاءت فی مئة وثلاثين بيتاً ومطلعها:

فی حسنِ مطلع أقمار بذی سَلَم أصبحتُ فی زمرة العشاقِ كالعلمِ

للباعونية مدحية أخرى مشهورة أورد صاحب الكشكول أبياتاً منها أوّلها:

ســعد إن جئتَ ثنيات اللّوى حی عنّــی الحی منِ آلِ لُوی

(العاملی، ۱۹۶۱م: ۳۶۱)

فيها وفی «الفتح المبين» توظف الباعونية فن البديع لمدح النبی «كالحلّی» و«ابن‌حجّة» ولكن ما يميز مديح الباعونية عن مديح الشعراء الرجال هو البعد العاطفی لدرجة تجعلنا نميل إلى اعتبارها رائدة الرومنسية الروحية فی الشعر العربی.

وفی عصر نهضة الأدب بعد الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام كان من بين رواد

www.SID.ir

Archive of SID

النهضة الأدبية سيدات فضيلات من أبرزهنّ: «ملک حنفی ناصف» و«عائشة التيمورية» التی أجادت الشعر باللغتينِ العربية والترکية وخلفت فی ذلک ديوانين «حلية الطراز» وهو ديوان لمجموعة أشعارها العربية وديوان آخر، باسم «شکوفه» هو ديوان أشعارها الترکية، وهو يحتوی علی بعض الأبيات التی قالتها الشاعرة فی ابنتها «توحيدة» التی توفيت وهی فی مقبل العمر.

ولها مؤلفات أخری هی: «نتائج الأحوال فی الأقوال والأفعال» هو کتاب عربی، فيه قصص لتهذيب النفوس و«مرآة التأمل فی الأمور» وهی رسالة باللغة العربية فی الأدب.

وفی عصرنا الحديث فی مجال الصحافة تألقت «زينب فواز» المولودة فی جنوب لبنان عام ۱۸۴۶م، حيث اشتغلت بالصحافة وألفت کتاب تراجم لنساء شهيرات عنوانه «الدر المنثور فی طبقات ربات الخدور» وماری الياس المشهورة بـ «می‌زيادة» کانت ألمع الأدباء والوحيدة التی کانت تتقن ست لغات، إضافة إلی أسماء أخری فی بلدان المشرق قامت بإنشاء صحف ومجلات نسائية مثل: «روز أنطوان» التی أسست «مجلة السيدات والبنات» فی الإسکندريه عام ۱۹۰۳م و«ماری عجمی» صاحبة «العروس» التی أنشأتها فی دمشق عام ۱۹۱۰م (غريب، ۱۹۸۰: ۲۱) أمّا فی مجال الرواية فأول رواية عربية فی تاريخ الأدب الحديث، هی رواية «حسن العواقب» لـ «زينب فواز» وقد کان ذلک عام ۱۸۹۹م ورواية «بديعة فؤاد» للکاتبه اللبنانية «عفيفة کرم» ورواية «ذاکرة الجسد» للروائية الجزائرية «أحلام مستغانمی».

وللأدب العربی فی هذا العصر أيضاً باحثات ومفکرات أخريات نحو الکاتبة الأديبة العالمة «بنت الشاطیء، عائشة عبدالرحمن» والأديبة القاصة «سکينة فؤاد» والکاتبة «نعمات فؤاد» ومن الشاعرات «عليه الجعار» و«روحية القلينی» و ...

انتهی هذا البحث إلی المساحة الکبيرة التی تشغلها المرأة فی کافة المجالات، وقد وقف علی أهم الشخصيات النسائية البارزة، اللاتی يعتبرن من أعلام الأدب العربی وقدرن علی إثبات وجودهن فی مجتمعاتٍ أغلب أفرادها لايعترفون بالمرأة کعنصر منتج.

www.SID.ir

Archive of SID

أغراض الشعر النسائی

يتناول شعر النساء فی العصر الجاهلی والإسلامی أغراض الشعر المعروفة فی تلک الفترة کالمدح والرثاء والهجاء والحکمة وإثارة لحماس وغیرها من الأغراض، غیر أنّ أهم الأغراض الشعریة التی نظمت فیها المرأة الجاهلیة هو الرثاء وذلک لأنّ ندب المیت والتفجع علیه کان من مهماتها وکانت الخنساء أرثی شواعر العرب وأغزرهن شعراً وديوانها يكاد يقتصر على الرثاء. (بوفلاقة، ۲۰۰۳م: ۱۷)

ومن عیون شعرها فی رثاء أخیها «صخر»:

يذكّرُنی طلوعُ الشمس صخراً وأذكُرُهُ لِكُلّ غروب شــمسِ
فلولا كثــرة الباكيــن حولی علی إخوانهم لقتلتُ نفســی

(الخنساء، ۱۹۶۸م: ۵۰)

وفی هذه المرحلة ظهرت شاعرة أخری هی لیلی الأخیلیة، عاصرت عثمان ومدحت معاویة وحاول الحجاج بن یوسف الثقفی أن یقطع لسانها وفی موقع آخر أکرمها، ولها مع الولید بن عبدالملک حکایة طریفة تدلل علی براعتها فی الرد وقوة حضورها فی مجالس الخلفاء وعلیة القوم. وهی تختلف عن الخنساء بأهاجیها التی أثارت معارک حامیة بینها وبین شعراء مرحلتها وفی المقدمة منهم النابغة الجعدی خصمها.

ولکن الأخیلیة تحولت إلی الهجاء اضطراراً أو استکمالاً لملمح قوتها وتمیزها ولایذکر هذا الباب فی شعرها إلا استطراداً. ولها أشعار فی رثاء صاحبها «توبة بن حمیر» والأمر الأهم أنها کانت متروجة من رجل آخر عند مجاهرتها بأمر هذا الحب.

ومن میزات رثاءها خلو الکثیر من شعرها من الطقس المأساوی الذی وسم شعر الخنساء. إن اختلاف لیلی الأخیلیة عن الخنساء یبرز فی نوع صلتها بالمراثی وفی طبیعة استخدامها لها، مما یضعها فی مقام أقرب إلی الشعر منه إلی الندب. قال فؤاد البستانی: «شعرها أوفر تنوعاً من شعر الخنساء، وإن یکن هذا أکثر شهرة، نضمت فی المدح، ولها مدائح حسنة فی الحجاج خاصة.» (البستانی، ۱۹۶۹م، ج۸: ۱)

فقالت فی مدح الحجاج:

www.SID.ir

Archive of SID

أحجاج لایفلل سلاحک إنما المنایا بکف الله حیث تراها
إذا هبط الحجاج أرضاً مریضة تتبع أقصی دائها فشفاها
(صقر، ۲۰۰۶م: ۳۴۵)

وفی العصر العباسی عن موقع المرأة الاجتماعی، ینقسم شعرها إلی شطرین: الشعر الذی تقوله القینة والجاریة، وأکثره فی الحب ووصف الطبیعة وبعضه یقرب من التهتک، والآخر شعر التصوف والزهد، یصادفنا شعر صوفی لـ «رابعة العدویة» التی عاشت فی القرن الثانی للهجرة، ومن شعرها قولها تتغزل فی الذات الإلهیة:

حبیب لیس یعدله حبیب وما لسواهُ فی قلبی نصیبُ
حبیبُ غابَ عن بصری وشخصی ولکن عن فؤادی ما یغیبُ
(صقر، ۱۹۶۷م: ۱۲۴)

أما شاعرات الأندلس فأهم الأغراض التی نظمن فیها، هی: الغزل، والمدح، والهجاء، ووصف الطبیعة، والشکوی، والاستعطاف. لعل أبرز أغراض الشعر النسائی فی الأندلس هو الغزل ومرد ذلک إلی شیوع الترف واللهو والطرب فی المجتمع الأندلسی.

ینقسم الشعر الغزلی إلی اتجاهین: اتجاه العفاف والترفع واتجاه المجون والشهوة ومن الشاعرات اللاتی یمثلن الاتجاه الأول هی «الغسانیة البجانیة»، تقول:

اَتَجْزَعُ إن قالوا سترحل أظعان وکیف تطیق الصبر ویحک اِنْ بانُوا
وَما هو إلا الموت عند رحیلهم وإلا فعیش تجتنی منه أحزانُ
عهدتهم والعیش فی ظل وصلهم أنیق وروض الدّهر أزهر ریانُ
(بوفلاقة، ۲۰۰۳م: ۷۴)

فی الشعر النسائی الأندلسی، «ظاهرة حب المرأة للمرأة» أی الجنسیة المثلیة. کما عند «ولادة» و«حمدونة بنت زیاد» وکذلک موضوع الهجاء الذی طرقته المرأة الشاعرة فی الأندلس وأفحشت فیه وتجرأت ـ وبکل وقاحة ـ علی ذکر السوءات وعلی الألفاظ البذیئة التی یخجل الرجل من روایتها وکل ذلک لانجده عند المرأة الشاعرة المشرقیة.
(نفس المصدر: ۱۹۲)

www.SID.ir

Archive of SID

انطلق «عهد النهضة» من فكرة حرية المرأة النبيلة وضرورة تعليمها وإتاحة الفرصة أمامها لتعبر عن عاطفتها مع إيمان بسحر الروح الأنثوى ولكن لم تكسر الشاعرة كصوت جماعى حاجز الخوف من قول العاطفة بأشكالها المنوعة إلاّ منتصف القرن العشرين وبقى الرثاء أكثر انتساباً إلى شعر المرأة العربية إلى ستينات هذا القرن وإن تطور هذا الغرض لدى شاعرات هذا الزمن ليصبح نزوعاً مأساوياً ومزاجاً سوداوياً كما حدث مع «نازک الملائكة» وقبلها «مى‌زيادة» و«باحثة البادية» وغيرهنّ. لنتذكر أن «باحثة البادية» كرست جزءاً كبيراً من شعرها فى رثاء ابنتها وأقاربها وإنّ شعرها الغزل وعلى وجه الخصوص المكتوب بالمصرية المحكية أصبح ضمن تراث الأغانى الشعبية، ونسى الناس نسبته إليها. أما «وردة اليازجى» التى تقربت من شعر الطبيعة فى صباها، فلم يكن أمامها بمرور الوقت سوى أن تحول نادبة لكل من مات من أهلها ومعارفها، وكانت «نازک الملائكة» بحق بكاءة لاتكف عن رثاء ذاتها حتى وهى تقول كلام الحب وعندما توفيت والدتها تحولت إلى خنساء جديدة ويتفق هذا الجانب السايكولوجى فى شخصيتها مع نزوعها نحو إظهار أبعاد فلسفية فى شعرها. «نازک الملائكة» لم تنتج سوى قصائد الحزن العاطفى ورثاء الذات والشعور بالعزلة والخوف من الزمن والموت. فعاطفة الحب لديها التى تشكل محور قصائدها، ممتنعة بإرادتها عن السعادة، لأنّ الفرح فيها يخرج المرأة عن وقارها ويلقيها فى مهاوى الرذيلة.

أمّا كانت «فدوى طوقان» بين الشاعرات البارزات بعد «الملائكة»، أكثرهن جرأة فى التطرق إلى موضوع الحب والحرية حيث تغنت بمواعيدها مع الرجل وقاربت بعض قصائدها من نبرة «نزارقبانى» فى تجاوزه المتعارف الاجتماعى.

وفى المرحلة ذاتها ظهر بعض شاعرات منهن «لميعة عباس عمارة» فى العراق التى كانت تعبر بطاقة عن أحاسيسها وعرفت بجرأتها العاطفية فى قول شعر الحب ولم تملک مزاجاً مأسوياً مثل نازک الملائكة، غير أن قصيدتها بقيت فى الظلّ مثل الكثير من الشعر النسائى الذى كتب فى مرحلتها. (نزوى، ٢٠٠٩م: ١٧)

أمّا فى عصرنا الحاضر لم أذكر أسمائهن لكثرتهن فقد تفنن فى القول ونظمن فى كل

www.SID.ir

Archive of SID

مجال من میادین الشعر الرائق.

هکذا حققنا أنّ المؤرخین سیطرت علیهم فکرة خاطئة، صورت لهم أن الشاعرة العربیة لاتحسن غیر الرثاء ولذلک حددوا مجالها الفنی بالرثاء وحده، وأهملوا شعرها فی غیره. فابن سلام فی «طبقة شعراء المراثی» وکذالک البحتری فی «حماسته» التی أفرد الباب الأخیر لمختارات من الرثاء لعشر شاعرات. أما غیر الرثاء فلا اهتمام به، وکأنّ المرأة لم تقل الشعر إلاّ فی الرثاء. (بوفلاقة، ۲۰۰۳م: ۲۲)

النتیجة

إنّ مصطلح الأدب النسائی یفید عن معنی الاهتمام وإعادة الاعتبار إلی نتاج المرأة العربیة الأدبی ولیس عن مفهوم ثنائی، أنثوی ـ ذکوری، یضع هذا النتاج فی علاقة اختلاف ضدّی ـ تناقضی، مع نتاج الرجل الأدبی.

والمصطلح، بهذا المعنی یحیلنا علی تاریخ للأدب العربی ساهمت فیه المرأة منذ عهود قدیمة، تعود إلی ماقبل الفتح الإسلامی إلاّ أن مساهمتها أهملت بسبب من معاییر قیمیة ربطت بین الفنون والآداب وثقافاتهما وبین نظام قبلی قوامه القوّة، أو سلطة علی رأسها رجل ینزع إلی التسلّط. هکذا جری تفضیل شعر الفخر والمدیح والهجاء علی شعر الرثاء، أی تفضیل ما یعبر عن القوة ویخدم السلطة علی شعر «الضعف والضعفاء».

ولئن کانت المرأة معتبرة، فی نظام القیم الاجتماعی، من جنس الضعفاء فقد أهمل بشعرها وسقط ذکر الشاعرات اللواتی بلغ عدد هن ۲۴۲ شاعرة، من «الخنساء» إلی «ولادة بنت المستکفی».

المصادر والمراجع

ابن بسام، أبوالحسن. ۱۹۷۵م. *الذخیرة فی محاسن أهل الجزیرة*. تحقیق إحسان عباس. تونس: الدار العربیة للکتاب.

ابن‌قتیبة، أبومحمد عبدالله بن مسلم. ۱۹۸۶م. *الشعر والشعراء*. بیروت: دار إحیاء العلوم.

الأصفهانی، أبوالفرج. ۱۹۸۸م. *أخبار النساء فی کتاب الأغانی*. جمع وشرح عبد الأمیر مهنا. بیروت:

www.SID.ir

Archive of SID

مؤسسة الكتب للثقافة.
البستانی، فؤاد أفرام. ۱۹۶۹م. *دائرة المعارف*. بيروت: لانا.
بوفلاقة، سعد. ۲۰۰۳م. *الشعر النسوی الأندلسی*. بيروت: دار الفكر.
الخنساء، تمتضر بنت عمرو. ۱۹۶۸م. *ديوان*. بيروت: دار التراث.
الرافعی، مصطفی صادق. ۱۹۷۴م. *تاريخ آداب العرب*. بيروت: دار الكتاب العربی.
صقر، عبدالبديع. ۱۹۶۷م. *شاعرات العرب*. قطر: المكتب الإسلامی.
طرابيشی، جورج. ۱۹۸۱م. *الأدب من الداخل*. بيروت: دار الطليعة.
العاملی، بهاءالدين. ۱۹۶۱م. *الكشكول*. تحقيق الطاهری الزاوی. ليبيا: دار إحياء الكتب العربية.
غريب، روز. ۱۹۸۰م. *نسمات وأعاصير فی الشعر النسائی العربی المعاصر*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
كحالة، عمر رضا. ۱۹۸۲م. *أعلام النساء فی عالم العرب والإسلام*. بيروت: مؤسسة الرسالة.
الكيلانی، إبراهيم. لاتا. *أدبيات من الغرب*. دمشق: منشورات دار الرواد.
ونيسی، زهور. ۱۹۸۸م. *علی الشاطیء الآ خر*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
يمّوت، شبير. ۲۰۰۶م. *شاعرات العرب فی الجاهلية والإسلام*. بيروت: مكتبة الأهلية.

www.SID.ir